

وصية العبد ووصايا لقمان الحكيم لابنه للشبح الفاضل أبي بكر يوسف موسى الخطيب حفظه الله

وصية الله لعباده ووصايا لقمان الحكيم لابنه للشبح الفاضل أبي بكر يوسف
لعويسجي الخطابي - حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله

وصحبه وسلم تسليما كثيرا:

أما بعد :

هذه وصية الله لعباده أتبعها بوصايا لقمان لابنه وهو يعظه ، وقد أخبرنا الله بها لما
فيها من حكمٍ عظيمة ، أتاها الله تعالى لهذا العبد الصالح ، وامتنن بها عليه وأنزل
فيها قرآنا يتلى في الصلوات ، والمحاريب ، ويُذكر بها في الدروس والمواعظ ، والمحافل
والمساجد إلى يوم القيامة ، وما ذكرها الله تعالى في كتابه إلا لتكون نبراسا يحتذى

به ، ومنها جاً للحياة الإيمانية السعيدة المطمئنة ، والله عز وجل لا يرفع من شأن شيء إلا بقدر قيمته ، كيف لا وقد قال سبحانه في ذلك {{ : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269) }} سورة البقرة.

فقد أتى الله لقمان الحكمة ، وبها أوتي الخير الكثير ، قال تعالى {{ : ولقد ءاتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد }} فهل شكر لقمان الله على هذه النعمة العظيمة ؟

والجواب نعم قد فعل ، وها هو يصرف هذه النعمة ويضعها موضعها الصحيح الذي كانت من أجله ، في وصايا وقواعد ليس لابنه فحسب بل لأجيال وأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهل استفادت تلك الأجيال المتعاقبة منها ؟ للأسف الشديد لم يستفد منها إلا القليل الذين استفادوا من نعمة الإيمان فشكروا الله تعالى على تلك النعمة وقد بينه تعالى بقوله {{ : يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها

وأكثرهم الكافرون }} {{ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين }} {{ وقليل من عبادي

الشكور {ومن هنا جاءت وصية الله سبحانه وتعالى للأولين والآخرين بقوله }{ :

..وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131) {سورة

النساء . فوصية الله تعالى بالتقوى ، وهي كلمة جامعة لخيري الدنيا والآخرة ، فمن

أخذ بهذه الوصية العظيمة الجامعة [[تقوى الله]] وشكر الله تعالى عليها ، حصل له

من العلم والحكمة الخير الكثير ، قال تعالى }{ : **واتقوا الله ويعلمكم الله . }{**

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في هذه الآية من تفسيره [ج ١/ ٢٢٤] أن

تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم ، وأوضح من هذا قوله تعالى }{ : **يا أيها الذين**

آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا }{ أي علما تفرقون به بين الحقائق ، والحق

والباطل .

والوصية في اللسان العربي : هي الأمر ، فقله تعالى : ﴿ ﴿ ووصينا الإنسان

﴿ ﴿ أي أمرناه ، والوصية أيضا بمعنى الوصل ، لأنه وصل ما كان له في حياته بما

بعد موته ، أفاده شيخنا عليا الهندي في رالته اللطيفة : المذكرات الجليلة بتصرف

سير.

وشرعا قال : تطلق على ما يقع به الزجر عن المنهيات والحث على المأمورات . فتح

الباري [ج ٥ / ٣٥٥].

والوصية هي الإرشاد بالحكمة إلى الحكمة ، وبالخير إلى الخير والبر ، واتقاء الشر والضر ، والتربية على الفضائل ، والترفع عن الرذائل ، وقد تكون دينية أو دنيوية ، كما تكون في الحياة أو عند حضور الأجل ، فالآباء يوصون أبنائهم ويربونهم على الأخلاق الفاضلة ، في حياتهم وعند حضور آجالهم ، والعلماء والمربون الربانيون يوصون طلابهم بالعلم وآداب الطلب والتحصيل كذلك ، على منهاج النبوة ، وأصدق ما وصى به موصٍ ونصح به ناصحٌ ما كانت وصيته ونصيحته عند حضور أجله..
والوصية أنواع :

1- وصية الميراث : وحكمها معلوم في الشرع ، وقد حث عليها رسول الله صلى

الله عليه وسلم بقوله " : ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا

ووصيته عنده مكتوبة "رواه البخاري ومسلم.

- 2 وصية النصيح وإرادة الخير للوصي :وهي ظاهرة عامة خصوصاً عند دنو

الأجل ؛ وقد كانت وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضرته الوفاة :

"الصلاة وما ملكت أيمانكم" صحيح الجامع [٣٧٦٧] وقوله " :استوصوا بالنساء

خيراً . . " متفق عليه وأورد أصحاب الحديث والسير وصايا بعض الأنبياء

وغيرهم تختلف باختلاف المواقف والظروف، وفي بعضها نصح للأهل والولد أو

لسائر الناس.

-وصية الاستخلاف :قال تعالى}} {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ

اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) }} سورة البقرة ﴿٥٠﴾ .وقد

أوصى النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر بعد موته ، كما أوصى أبو بكر إلى

عمر وأوصى عمر أن تكون في الستة الذين توسم فيهم الأفضلية والكفاءة رضي الله

عن الصحابة أجمعين

فما هي وصايا لقمان:

الوصية الأولى}} : **وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك**

لظلم عظيم}} {لقمان: [١٣ .]

في هذا الوصية من الفوائد:

- 1 - مشروعية وصية الوالد لابنه بما ينفعه ويصح معتقده . . ويؤخذ منها مشروعية وصية الشيخ المعلم لتلميذه بذلك ، فإن المعلم بمنزلة الأب ، وإن حاجة الطالب إلى أبوة العلم أشد من حاجته إلى أبوة النسب ، فكيف إذا اجتمعت هاتين الخصلتين في الوالد فكان هو المربي وهو الشيخ وهو المعلم ، فبعدها لا تسأل...
- 2 - مخاطبة الموصي لوصيه بألفاظ العبارة ، وأرق الألفاظ لتكون ادعى للقبول وأجدى نفعا ..
- 3 - البداءة بالأهم فالهم ، وأهم شيء يوصي به الأب المربي والشيخ المعلم ولده هو العلم بالله تعالى ، وإفراده بالعبادة ، إذ عليها النجاة والخسران يوم القيامة.
- 4 - التحذير من الشرك بالله تعالى بجميع أنواعه بتعلمه ، ليس لذاته وإنما لتوقيه

حتى لا يقع فيه ، لأنه إذا وقع فيه وقع في أعظم الظلم.

5 - تشير الوصية أن الشرك من أعظم الظلم فوجب الحذر منه ، واجتنابه والتحذير منه .

6 - في الآية بيان لفهم الصحابة الذين فهموا الظلم على غير وجهه ، فلما نزل قول

الله تعالى { } : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون { }

شق ذلك عليهم ، وقالوا أينما لم يظلم نفسه ؟ ففهموا أن الظلم عام ، فقال لهم

الرسول صلى الله عليه وسلم < : ليس ذلك ، إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا قول

لقمان لابنه : يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم . >>

7 - على المتربي والوصي أن يبحث عن رفع المشقة عن نفسه ، وأن يسأل عن

ذلك أهل الاختصاص ، حتى يرتاح باله وتطمئن نفسه { } فاسألوا أهل الذكر إن

كنتم لا تعلمون { } وذلك ما فعله الصحابة لما أشكل عليهم .

8 - ينبغي على الوالد المربي والشيخ المعلم أن يبين اللبس والإشكال الذي يحصل

لولده ووصيه ، برد المتشابه إلى المحكم ، وقد بين لهم النبي صلى الله عليه وسلم

ذلك.

9- بيان أن من حقق التوحيد جاء آمناً يوم القيامة حتى لو كان عنده بعض الظلم ، فقول الصحابة رضوان الله عليهم أينما لم يظلم نفسه ؟ ورد النبي عليهم بأنه ليس

ذلك الظلم

الذي فهموه ، وإنما هو الشرك ، أما غيره من الظلم حتى لو حصل من العبد فهو آمن يوم القيامة مادام لم يشرك بالله شيئاً ، وبيان ذلك الآية المذكورة آنفاً، وجاء في الحديث القدسي قال الله تعالى << قال الله تبارك وتعالى يا ابن آدم إنك ما دعوتني

ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان

السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض

خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة >> صحيح الترمذي للألباني [ح

٣٥٤٠] وفي السلسلة الصحيحة. [127]

وهذا لا يعني إطلاقاً أنه لا يضر مع الإيمان ذنب ، فلو كان الأمر كذلك ما جاء في

باقي الوصايا بالنهي عن تلك المعاصي الكبيرة التي تخدش في إيمان العبد ولا تبطله .

وتطهير العبد من ذنوبه التي أصابها بدخوله النار لاينا في عدم الأمن لأن هذا تكفير
وتطهير حتى يناسب دار الكرامة الطاهرة.

الوصية الثانية: البر بالوالدين والإحسان إليهما في المعروف وبالمعروف.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي
عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (١٤) سورة لقمان.

هذه الوصية الثانية من وصايا العبد الصالح لقمان لابنه وهو يعظه ، وقد ثمنها الله
تعالى في كتابه ، وجعلها تتلى إلى يوم القيامة ، وما ذلك إلا لعظم شأنها حتى تبقى
ركنا قائما في قاموس وصايا التعامل في البناء التربوي العائلي ، يوصي بها الآباء
الأبناء جيلا بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فإن تقدير الوالدين
وتوقيرهما والبر بهما مستقر في الفطر تحكمه العاطفة الغريزية التي أودعها الله في
نفس الأولاد للآباء ، وإن كانت عاطفة الآباء وحبهم للأبناء أكثر بكثير، ولا يعرف
هذا الحب وتلك العاطفة الجاححة عند الآباء لأبنائهم إلا من رزقه الله الأولاد ورأى
فلذة كبده تذب أمامه على الأرض فكل مولود يجد في نفسه ذلك لوالديه ، ولكن

وصية الله لعباده ووصايا لقمان الحكيم لابنه للشبح الفاضل أبي بكر يوسف لعوبسي

الكتابي - حفظه الله

يمكن أن تنحرف به الفطرة بسبب عوامل خارجية ، وتسلب الشيطان على بني آدم ، ولا يستيقظ إلا إذا أصبح هو والدا له أولاد ، فلا يعرف قيمة الوالدين إلا من رزق بنعمة الأولاد .

وإن لقمان الحكيم ، ذاق طعم هذه العاطفة والمحبة الأبوية ، وعرف قدرها فأراد أن يتركها وصية في عقبه لولده ، وهكذا لولده من بعده . . وهكذا قبلها الله تعالى وأكدها وأنزلها في كتابه ، كيف لا تكون بهذه المكانة من الأهمية وقد قرنها سبحانه بإفراده بتوحيده في عبادته.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية : . . ثم قرن وصيته إياه بعبادة الله وحده بالبر بالوالدين لعظم حقهما ، فالأم حملت ولدها بمشقة والأب تكفل بالانفاق ، فاستحقا من الولد الشكر . { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّالَةٌ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ }.

وجعل الله ذلك الشكر من أحب الأعمال إليه فعن أبي عمرو الشيباني قال : حدثنا صاحب هذه الدار - وأوماً بيده إلى دار عبد الله بن مسعود رضي الله

عنه قال: ﴿﴾ سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل ؟ قال << : الصلاة على وقتها >> قلت : ثم أي ؟ قال << : ثم بر الوالدين
}} .. >> متفق عليه .

وقد بين الله تعالى تلك الوصية المبهمة {} : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ {} وبقوله تعالى :
﴿﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِإِحْسَانًا ﴿﴾ (١٥) سورة الأحقاف .
قال البغوي رحمه في تفسيره : أي برا بهما وعطفا عليهما ، معناه ووصينا الانسان
أن يفعل بوالديه ما يحسن .

وقد أمر الله تعالى بهذه الإحسان فقال : ﴿﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا
تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿﴾ (٢٣) سورة الإسراء {} {} الاسراء .

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية الكريمة :
أي أحسنوا إليهما ، بجميع وجوه الإحسان ، القولي والفعلية ، لأنهما سبب وجود
العبد ، ولهما من المحبة للولد ، والإحسان إليه ، والقرب ، ما يقضي تأكد الحق

ووجوب البر . [ج ٣ / ١٠٣]

قلت : بل يفعل بهما ولهما الأحسن ، ولا يقدم عليهما ما يستحسنه لنفسه لأن قوله صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه <<: ثم بر الوالدين >> مفهومه الإتساع في الإحسان إليهما وصلتهما وأداء حقوقهما ، وهذا معنى البر فإنها كلمة كبيرة واسعة المعنى . كإتساع رضا الله فإنه يشمل الرضا بجميع الأعمال الصالحة ، ومن أعظمها بر الوالدين ، لذلك قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما <<: رضا الرب في رضا الوالدين ، وسخط الرب في سخط الوالدين >> حديث حسن موقوف ، وصح مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم انظر له السلسلة الصحيحة [ح ٥١٥].

ومن تمام رضا الرب عن العبد شكره لله تعالى وللوالدين ، اشكر العظيم على هذه النعمة العظيمة أن الله جعله في رعاية والديه من حين الحمل والوهن المصاحب له ، إلى وقت الولادة مع الكره الذي تجده الأم ، إلى فصاله وفصامه في عامين ، إلى الرعاية به وحبه والعطف والحنان عليه حتى اشتد عضده وأصبح عضوا صالحا

في المجتمع ، وذلك في قوله سبحانه { } : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾)

سورة الأحقاف . { } المقصود بالكره في الآية هو المشقة التي تجدها الأم في الحمل ، وليس الكره بمعنى البغض والنفر من الشيء ، فإن المرأة مجبولة على حب الحمل والإنجاب ، ولو كان فيه من الوهن والمشقة ما فيه ، وإذا أردت أن تعرف ذلك فاسأل بعض من لم يرزقهم الله الأولاد كيف لفهم وولعهم على فقدان تلك النعمة .

واعلموا - جعلني الله وإياكم من أوعية العلم - أن الله كما أمر بالبر بهما بكل أنواعه ، نهى عن العقوق لهما بكل أشكاله وصوره ، فرتب النهي بدءاً بأصغر ما يؤذيها ويسوء إليهما ، ليدل على تحريم ما زاد عليه فقال : ﴿ ﴾ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿ ﴾

فإذا كان العقوق حاصل بأدنى المراتب التي هي : ﴿ ﴾ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ ﴿ ﴾ كما

في هذه الجملة من الآية وأنه من أكبر الكبائر كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور فكيف بما زاد على ذلك ؟؟؟ من يرفع يديه ليضربهما أو يسبهما ، أو يرميهما في دور العجزة ، أو يهملهما أو يحرمهما دنيا كانا سببا في تنعمه بها ، اللهم عفوك ، اللهم عفوك.

وقد أوجب الله هذه الوصية وأمر بها ، إلا في حالة واحدة وهي : أن يأمرأك بمعصيته تعالى ، فحينئذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ومع عدم طاعتها في المعصية ، وجب الإحسان إليهما في غيرها من المباحات ، ومصاحبتهما بالمعروف ، وهذا من عظمة هذا الدين وتعظيمه لحقوق الوالدين اللذين كانا سببا في وجود الولد.

فقال سبحانه وهو يوصي بذلك { : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
(٨) سورة العنكبوت.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية : أي إن حرصا عليك كل الحرص أن

تتبعهما على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنع ذلك من أن تصاحبهما في

الدنيا معروفا أي محسنا إليهما ، واتبع سبيل المؤمنين.

قلت : أي، إن أمراك بمعصية ، من تخل عن واجب أو تذهب بمذهب ، سواء

كان مذهب كفري أو حزبي مبتدع كأن يأمرأك بأن تشيع أو أن تسلك سبيل

الخوارج والتكفيرين ، والقدرية الجوس والمرجئة المميعين ، ومذهب العلوم والعلمانيين

، والاشتراكية والرأس مالين ، وغيرها مما يسمى بالثقافات الحضارية التقدمية التي

تحارب الإسلام وتسعى إلى هدم قواعده ، أو أمراك بمعصية كمنعك من الصلاة ، أو

الذهاب إلى المسجد ، أو تعلم المعلوم من الدين بالضرورة ، أو يلزماك بحضور وإقامة

حفلات الزفاف المليئة بالمنكرات ، أو يجبرأك على الدراسة والعمل في الاختلاط ،

أو التبرج والسفور ، لأن بعض الأباء يعد ذلك تقدما ، ويعد الحجاب الشرعي

تأخرا ورجعية ، فلا تتبعهما وصاحبهما في الدنيا بالمعروف المتعارف عليه شرعا

أو عرفا مما لا يخالف شرع الله قال تعالى : ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ
ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ سورة لقمان ، وقوله سبحانه :
﴿ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ يعني مصاحبتهم في جميع أمور دنياك مما ليس
فيه مخالفة ، وعلى امتداد دنياك أي حياتك.

ومن الإحسان إليهما في ذلك مناقشتهم بالتي هي أحسن للتي هي أقوم ، والصبر
على ذلك وعدم التنازل عن شيء من دينك مما هو من الواجبات ، على خلاف
المندوبات إذا كان ذلك يؤلف بينك وبينهما فلا حرج حنئ ، على أن لا يستمر
ذلك طويلا ويصبح عادة لهما يجذانه بابا للتقيص من دينك شيئا فشيئا ، وسمع
لهذه المناقشة والمحاور الأدبية الرائعة: { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا
نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا
(٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا
(٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ

الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابُ

مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ سورة مريم ﴿﴾ وفي آخرها قال له :

﴿﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) {سورة مريم،

فانظروا -رحمكم الله وإيانا - كم من مرة يكرر هذه اللفظة الرقيقة اللطيفة يستلطف

بها شعور والده فيلين لها ويسمع لما وراءها : ﴿﴾ يَا أَبَتِ ﴿﴾ أي أدب هذا وأي

تلطف ذلكم في إقرار التوحيد وإفراد الله بالعبادة، ودعوة الوالد إلى ذلك وهو

المشرك.

ويتكرر هذا الخلق الرفيع مع يوسف ، وأبيه وهو أدب الأنبياء ودأبهم عليه، فاسمع يا

رعاك الله ﴿﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ، وبنفس اللطف والحنان والرقّة يبادله أبوه الخطاب فيقول

: ﴿﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ

لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿﴾ (٤ - ٥) سورة يوسف . يالها من كلمة لطيفة رائعة ترفع من

معنويات الابن وهو يسمعها من واليه ، فتنزل على قلبه كقطرات الندى لتبلله بحنان

وعطف الأبوة ، فيطرب لها ويسعد بها ، فما أحوجنا لمثل هذه الآداب الرائعة مع
آبائنا في النسب وآبائنا في العلم ، وأبناءنا كذلك .

واعلم أن كل ما ثبت للوالدين من الوصية بهما والإحسان إليهما فهو ثابت للعالم
والمعلم لأنه في مرتبة أحد الوالدين ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا
اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ . . . (٥٩) سورة النساء ﴿ فَأُولُوا
الْأَمْرِ مِنْهُمْ أَلَمْ يَسْمَعُوا أَمْرًا إِذْ يَدْعُوا إِلَىٰ أَعْتَابِ النَّبِيِّ لِيَأْخُذَ بِاللّٰهِ وَالْجَنَّةِ نَبَأًا ﴾ .
عن حق الوالدين على ولدهما لأن الحاجة إليه أعظم من حاجته لوالديه.

والآن نأتي إلى تلخيص الفوائد المستقاة من هذه الوصية العظيمة.

1- وصية الإنسان بوالديه ، مهما كان جنسه ، ودينه ، فهو مأمور بهذه الوصية ،
فلا فرق بين مسلم وكافر إذ لفظ الإنسان يشمل جميع أنواع بني آدم ، وفي هذا إشارة
إلى أن جميع الإنسانية مخاطبة بأصول وفروع الشريعة الإسلامية.

2 - الوصية بالإحسان للوالدين والبر بهما ، والصبر عليهما في جميع الأحوال وفي
كل حين لأنه مهما أحسنت إليهما فلا يمكن أن تكافأهما على الوجه المرضي إلا أن

تجد أحدهما عبدا فتشتريه وتعتقه فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال << : لا يجزي ولد والده ، إلا أن يجده مملوكا ، فيشتريه فيعتقه

>>رواه مسلم ك العتق [ح ٢٥ - ٢٦] والبخاري في الأدب المفرد [ح ٨٠].

قال السندي في شرحه سنن ابن ماجه : [ج ٢ / ٣٨٨]: وفي الحديث أن العبد كالهالك ، فكأنه بالإعتاق أخرجه من الهلاك إلى الحياة ، فصار فعله ذلك مما يعدل فعل الأب حيث كان سببا للوجود وإخراجه من العدم إليه .

3 - النهي عن طاعتها إذا أمرا بشرك أو كفر أو معصية ، وأنه لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وإنما الطاعة في المعروف ، وهذه قاعدة عامة وليست خاصة بالوالدين لأن قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ ﴾ { تفيد عدم طاعة وإتباع من لم يُنب ويرجع إلى الله.

4- الشكر للوالدين باعتبار أنهما كانا سببا في وجوده ، والشكر لله تعالى على تلك النعمة ، وهي أنه جعل للعبد والدين كان سببا في وجوده ورعايته إلى أن أصبح إنسانا سويا مكلفا فطلب بالشكر تكليفا وليس تشريفا.

5- مصاحبتهما في الدنيا بالمعروف وللمعروف ، مالم يجاهدك لتشرك بالله أو تعصيه ، وقوله تعالى : ﴿ .. فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴾ يفيد أن ذلك في جميع دنياك فلا تحرمهما شيئاً منها ، وطول عمرك أيضاً فلا تقصر في حقهما في وقت دون آخر . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداء ... << : وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من دنياك ، فأخرج لهما >>.. ابن ماجه [ح ٤٠٣٤] وصحيح الأدب المفرد [١٤] .

6- عظم حق الوالدين ، وأن الله قرنه بحقه من إفراده بالتوحيد والعبادة..
7- عظم جرم عقوق الوالدين فكما قرن طاعتها بطاعته وتوحيده ، قرن معصيتهما بمعصيته والشرك به ، فعقوق الوالدين كبيرة وعظيمة من العظائم لمقارنتها بالشرك ، كما أن الإحسان إليهما وطعاتهما في الله من أعظم أعمال البر ، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود.

8- عدم الأخذ بهذه الوصية من البر بهما يوقع العبد في أكبر كبائر الذنوب ، وهو

العقوق . قال عليه الصلاة والسلام <<: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر [ثلاثا] قالوا : بلى
: قال الإشراف بالله وعقوق الوالدين. >>.. متفق عليه.

9-العقوق يحصل بأصغر أمر نهى الله عنه ، وهو لفظة [أف] ويتعاضم كلما
ازداد حجم المخالفة التي يكون بها العقوق ، قال بعض السلف لو كان هناك ما هو
أصغر من هذه اللفظة [أف] لنهى الله عنه تقديرا وتعظيما لحق الوالدين على الولد
.

10-الوصية بالأبناء فهم نعمة يجب المحافظة عليها ، وعدم الإضرار بها ، فلا
يكون العباد والدا يعطى حقوقه ، حتى يكون ولدا يعطى حقوقه من الرعاية والربية
الصالحة . وصلى اللهم وسلم على عبدك ورسولك محمد .

الوصية الثالثة:

قال الله تعالى على لسان لقمان لابنه وهو يوصيه ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَتُكُّ مِثْقَالَ
حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ. }}

في هذه الآية الكريمة ، مازال لقمان يغرس في ابنه من الوصاية النافعة الجامعة ،
لتكون نبراسا يقتدى به ، ويعرفه بأسماء الله تعالى وصفاته - المعبود الحق - الذي
ينبغي أن يراقب في السر والعلن ، وأن يعظم في النفوس ، فتكون الأعمال كلها لله ،
وان الله لا يخفى عليه شيء منها ، صغيرها وكبيرها ، حسنها وسيئها ، لأنه هو من
يحصيها ويأتي بها يوم القيامة ،

وإذا كان لقمان حريصا على ذلك لابنه فإن نبينا عليه الصلاة والسلام جعلها سنة
متبعة وموعظة نافعة ، ووصية جامعة ، لأمته ، فقال لابن عباس وهو غلام حدث
<<يا غلام ، إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك

، وإذا سألت فاسأل الله ، ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم ان المة لو
اجتمعت على ان ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، وغن اجتمعوا
على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ،
وجففت الصحف >>رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وفي رواية غير
الترمذي <<: احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ،

واعلم ان ما أخطاك لم يكن ليصيبك ، وأما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن أن

النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا . >> أحمد ، والحاكم ،

تخريج المشكاة [ح ٥٣٠٢] وصحيح الجامع ٧٨٣٤ [وقال صحيح .

كلمة جليلة عظيمة ووصية جامعة نافعة ، وهي قمة في التوحيد ، في إفراده بتوحيد

الالهية ، وأنه مهما يكن من شيء نفعا أو ضرا ، غنا وفقرا ، فاستغن بالله في

اتخاذ الأسباب ، ومن اعظمها الدعاء فاسأله وحده ، ولاتلتفت لأحد ، فإن الله

هو الذي كتبه للعبد أو عليه ، وإذا تعلم العبد ذلك وتربي عليه ، وتيقنه ، دفعه

لحفظ حدود الله أمرا ونهيا ، وذلك تمام في مراقبة الله بالتعرف إليه في الشدة

والرخاء ، في اليسر والعسر ، في الغيب والشهادة ، وهذا هو الت عبد لله ، بالأحسان

، فاعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

وفي هذه الوصايا من الفوائد ما سنذكره إن شاء الله بعد أن أذكر أقوال المفسرين في

الآية.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله (المتوفى : ٣١٠هـ) جامع البيان في

تأويل القرآن [ج ٢١ / ٧٢ - ٧٣] بعد ما حكى أن في الآية قولين..

وأولى القولين بالصواب عندي، القول الثاني؛ أن الله تعالى ذكره لم يعد عباده أن يوفيهم جزاء سيئاتهم دون جزاء حسناتهم، فيقال: إن المعصية إن تك مثقال حبة من خردل يأت الله بها، بل وعد كلا العاملين أن يوفيه جزاء أعمالهما. فإذا كان ذلك كذلك، كانت الهاء في قوله: إنها (بأن تكون عمادا أشبه منها بأن تكون كناية عن الخطيئة والمعصية. وأما النصب في المثقال، فعلى أن في "تَكْ" مجهولا والرفع فيه على أن الخبر مضمّر، كأنه قيل: إن تك في موضع مثقال حبة؛ لأن النكرات تضمّر أخبارها، ثم يترجم عن المكان الذي فيه مثقال الحبة.

وعنى بقوله {{مِثْقَالُ حَبَّةٍ}}: {زنة حبة}. فتأويل الكلام إذن: إن الأمر إن تك زنة حبة من خردل من خير أو شرّ عملته، فتكن في صخرة، أو في السموات، أو في الأرض، يأت بها الله يوم القيامة، حتى يوفيك جزاءه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة قوله: {{

يَأْبَنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ { } من خير أو شحذنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن ويحيى، قالوا ثنا أبو سفيان، عن السدي، عن أبي مالك { } فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله { } قال: يعلمها الله. وقوله { } : إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَيْرٌ { } يقول: إن الله لطيف باستخراج الحبة من موضعها حيث كانت خير بموضعها. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَيْرٌ) أي: لطيف باستخراجها، خير بمسقرها. وقال القرطبي: [ج ١٤ / ٦٦ - ٦٨] الجامع لأحكام القرآن تحقيق هشام سمير البخاري.

المعنى: وقال لقمان لابنه يا بني. وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى. وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه، لأن الخردلة يقال: إن الحس لا يدرك لها ثقلا، إذ لا ترجح ميزانا. أي لو كان للإنسان رزق مثقال حبة خردل في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هي رزقه؛ أي لا تهتم للرزق حتى

تشتغل به عن أداء الفرائض، وعن اتباع سبيل من أناب إليّ.

قلت: [أي القرطبي] ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن مسعود: "لا تكثر همك ما يقدر يكون وما ترزق يأتيك". وقد نظقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا؛ سبحانه لا شريك له.

وقيل: المعنى أنه أراد الأعمال، المعاصي والطاعات؛ أي إن تك الحسنة أو الخطيئة مثقال حبة يأت بها الله؛ أي لا تفوت الإنسان المقدر وقوعها منه. وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف مضاف. ذلك إلى تبين قدرة الله تعالى. وفي القول الأول ليس فيه ترجية ولا تخويف.

قوله تعالى {}: فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ {} قيل: معنى الكلام المبالغة والانتها في التفهيم؛ أي أن قدرته تعالى تنال ما يكون في تضاعيف صخرة وما يكون في السماء والأرض.

قال: أبو الفداء إسماعيل كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ) تفسير القرآن العظيم، بتحقيق

سامي بن محمد سلامة:

وقوله {{}}: يَا تَبَهَا اللَّهُ {{}} أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط،
وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. كما قال تعالى {{}}: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ
الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا
وَكَفَىٰ بَنَّا حَاسِبِينَ [{{}} الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى {{}}: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ
* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [{{}} الزلزلة: ٧ ، ٨] ولو كانت تلك الذرة محصنة
محببة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات أو الأرض فإن
الله يأتي بها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا
في الأرض؛ ولهذا قال {{}}: إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ {{}} أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه
الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت { خبيرٌ } بدبيب النمل في الليل البهيم.
والظاهر - والله أعلم - أن المراد: أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة،
فإن الله سيبيدها ويظهرها بلطيف علمه.

كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن

أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كأننا ما كان ". قال المحقق: المسند (٢٨/٣) وحسنه الهيثمي في الجمع (٢٢٥/١٠) وفيه ابن لهيعة عن دراج وهما ضعيفان.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: في كتابه تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (المتوفى: ١٣٧٦هـ): [ج/٤/ ١٠٨].

{يا بُنَيَّ إِنَّا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ} التي هي أصغر الأشياء وأحقرها،
{فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ} {أي في وسطها} {أو في السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ} في
أي جهة من جهاتهما {يَأْتِ بِهَا اللَّهُ} {لسعة علمه، وتام خبرته وكمال قدرته،
ولهذا قال} {إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} {أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على
البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.
والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله، والعمل بطاعته، مهما أمكن، والترهيب
من عمل القبيح، قلَّ أو كثر.

وقال صديق حسن خان في كتابه فتح البيان في مقاصد القرآن [ج ٥ / ٢٥٩]. وقوله

{{ :فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ }} فإنها عند كونها في صخرة قد صارت في أخفى مكان وأحرزه حيث كانت في السموات أو في الأرض ، وفي الأخفى مكان منهما يأت بها الله يوم القيامة ويحاسب عليها .

وقوله {{ : إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَيْرٌ }} لطيف باستخراجها لالتخفى عليه خافية ، بل يصل علمه إلى كل خفي ، فهو خير بمكانها ، وبكل شيء لا يغيب عنه ، ومعنى الآية الإحاطة بالأشياء صغيرها وكبيرها .

الفوائد المستوحاة من الآية الكريمة:

- 1- تكرار النداء ، ب [يا بني فإنه أبلغ في التربية وقبول نصحية الولد من والده ، لأن ذلك فيه استعطاف ، ورقة ، وشفقة ، وحب ، واستجابة سريعة ، يظهر ذلك في قول الخليل إبراهيم لابنه ... }} : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى }} .. فجاء الجواب من الابن بالسمع والطاعة ، {{ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) }} سورة الصافات }} .. فلو قال له أبوه

، يا ولد ، تعال أذبحك ، ما حصل منه الاستجابة ، ولكن لما استعطفه بنسبته إلى صلبه بالأبوة ، وحبه بالبنوة ، وعلم الابن أن ذلك عن أمر الله خضع للأمر ، عن طواعية لأبيه وبر به فكانت النتيجة ما تعلمون {{وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (107)}}

سورة الصافات.]

2- وقوله {{ : يَا بُنَيَّ إِنَّهَا }} ..أي اعلم يقينا أنه مهما يكن من أمر صغير أو كبير جليل أو حقير ، طاعة أو معصية، خير أو شر إن الله يعلمه، ويأت به يوم القيامة فيحاسب عليه ، فيدفعه ذلك إلى توحيد الله ومراقبته في السر والعلن. وتعلم حفظهني جميع أحواله ، وهكذا قال نبينا عليه الصلاو والسلام << : اتق الله حيث ما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن . >> رواه أحمد ، والبيهقي في الشعب ، و الترمذي وقال حديث حسن وهو كما قال فقد حسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم [٩٦].

3 - ضرب الأمثال التي تقرب الفهم في التعليم والتربية للأبناء والطلاب ، بما يمكن أن يستوعبوه ولا يخرج عن حد الممكن إلى حد المستحيل ، فإن المثقال معروف

معهود ، وكذلك حبة الخردلة . . وإن كانت العقول لاتدرك وزنها..

4-ضرب الأمثال مما يقرب الفهم للطفل والتلميذ لمعرفة سعة علم الله وإحاطته بكل شيء ، فإذا كان الله لا تغيب عنه وزن ذرة ، ولا حبة خردل مما هو أدق الأشياء فكبيرها من باب أولى في هذا الكون الفسيح ، في سعة السماوات والأرض التي يشاهدها.

5-في الآية تحذير وتذكير ، وموعظة لطيفة ، وتحسيسات مستعطفة للانتباه لما يقوم به الابن أو الطالب من الأعمال ، فإن الله لا يخفى عليه من ذلك شيئاً ، فلا يستخف بالحسنة والسيئة مهما قلت أو صغرت . فعن انس بن مالك رضي الله عنه قال :

<<إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدّها على عهد

رسول الله من الموبقات >>رواه البخاري [ح٦٤٩٢]وقال : الموبقات المهلكات .

هذا في تحقير الذنوب ، أما في الحسنات فقد قال صلى الله عليه وسلم

<<لا يحقرن أحدكم شيئاً من المعروف >>..الترمذي ، وهو في صحيح الجامع

برقم : [٧٥١٠]

6- تعليم الطفل والتلميذ أسماء الله تعالى وتربيتهما على ذلك ، وحثهما على
التعبد لله بأسمائه وصفاته ، بمراقبته ، فإنه لطيف خبير ، وهو بكل شيء محيط
وإذا كان كذلك فهو على كل شيء قدير.

7- عدم غياب المثقال من حبة الخردل عليه يدل على سعة علم الله وإحاطته بكل
شيء ، وسعة سماواته وأراضيه يدل على سعة علمه وقدرته ، وذلك يدل على
خبرته بما يجري عليهما وفي باطنهما ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في
السما ، وهو السميع العليم . والحمد لله رب العالمين.

كتبه ابو بكر يوسف لعويسي